16 محرم الحرام 1431هـ - 02 يناير 2010 م- العدد : 330-331

جمالية المعمار الفني في ديوان "عاشقة"

مقدمة للمرحوم الدكتور فريد الأنصاري

ذة. أمينة المريني

يهمني أن أضع بين يدي قرائي الأعزاء مقدمة كتبها الأستاذ الجليل الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه وأعتبر المقدمة تنظيرا أدبيا لا يخفى ما فيه من ثقافة صاحبه العميقة ورؤاه الفكرية الغنية وتصوراته الشعرية الدقيقة في حجاج أدبي رصين بيِّن المقاصد وافي الحجج. هذه المقدمة كتبها المرحوم سنة 1419هـ لديواني "عاشقة" الذي فزت عنه -حينها- بجائزة رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض. إلا أن الرابطة اعتذرت عن نشر المقدمة... ثم ناقشتني في العنوان.. ثم انقطعت أخبار الديوان ثماني سنوات، إلى أن فوجئت بالرابطة السنة الماضية تطلب مني زيادة بعض النصوص، فاقترحت عليها إلغاء الإصدار.

وهكذا أقبر ديوان "عاشقة" بمقدمته الرائعة، فنقلتُ بعض نصوص مضافة إلى نصوص ديوان جديد تحت عنوان (... ومنها تتفجر الأنهار) كنت فزت عنه بجائزة وطنية وقد تولت وزارة الأوقاف الكويتية -مشكورة- إصداره خلال السنة الجارية.

وتعميما للفائدة ارتأيت أن أتحف قرائي بنص مقدمة المرحوم الدكتور فريد الأنصاري حيث يبدو هذا الأديب العملاق مفكرا عظيما ومنظِّرا ثاقب النظر أثابه الله خير الثواب لِمَا أسداه من أيادٍ بيضاء إلى لغة القرآن.

التدفق اللغوي هو أول ظاهرة تلفت نظر الداخل إلى معمار الشاعرة أمينة المريني، سواء في ديوانها السابق (ورد من زناتة)، أو في هذا الديوان الجديد الذي نقدم له اليوم : (عاشقة). فضاءات هندسية تقوم على تشكيل فني راق، يخطف أذواقك وأنت تتجول بين مداراتها القزحية، الفياضة بألوان شتى!

أمينة المريني تجربة متميزة تثبت ما كنا نؤمن به ولم نزل؛ من أن اللغة هي أساس الإبداع! بل اللغة هي الإبداع!

أي فن يمكن للفنان التشكيلي أن يبدعه خارج نطاق الألوان؟ أليست الصباغة هي التدفق الوحيد لشعوره وإبداعه؟ فمن ذا قدير على تصور الفن خارج ضفتيها؟

اللغة يا سادتي هي عين الجمال المتدفقة بالسحر والدلال، بانسيابها ينساب الإبداع رائقا رقراقا، وبضمورها يضحل ويموت!

أما الإبداع الشعري فهو في العمق ضرب من ضروب (الإشراق) الذي تفيض أنواره من الوجدان الكامن في قلب الشاعر، فإذا كا ن هذا يمتلك من اللغة جداولها، ومن الكلمات بلورها؛ كان الإشراق أبهى وأصفى، وإلا فإنه يضيع في متاهات الضباب!

الشعر يا سادتي اشتعال وجداني، واللغة هي مشكاته المقدسة، وكوكبه الدري الذي يفيض على العالم بالتجليات! أن تنتج القصيدة يعني أنك تسافر في فضاء الكلمات إلى عالم الملكوت؛ لتنظر إلى العالم والأشياء من خلال لغة خاصة، ومدار خاص!

فكم سنة ضوئية يجب أن يقطعها الشاعر في سفره ليشرب من المنابع الأولى لفجر اللغة؟

إن من أسوإ الأزمات التي تعاني منها القصيدة المعاصرة اليوم أزمة اللغة! وهي نكسة يعاني منها الأدب العربي المعاصر في كثير من تجلياته، بسبب ما جرته الحداثة من ويلات وتدمير للمقاييس والأذواق، فكان أن نتج عنها فريقان من الناس : (حداثيون) واعون بمشروع الحداثة الأيديولوجي، عاملون بقوة على إرساء معالمها في الوطن العربي، من خلال تدمير اللغة عن وعي بها وامتلاك لناصيتها، لكن هؤلاء هم القليل! أما الكثير فهم الفريق الثاني، وهم (الحداثويون)! -قياسا على أوزانهم!- هؤلاء دخلوا الحداثة من باب العجز اللغوي، والجهل بأبسط مقاييسها! فرصة نادرة للاحتساب مع المتأدبين والشعراء... ولم لا؟

فكان أن نبت جيل يكتب بلغة مسمارية صدئة، يملؤها الغي ويحصرها العي، ترى أحدهم في المهرجانات والمنتديات يتتعتع (بأشيائه) وهو لا يكاد يبين، ضيق النفس، حرج الصدر، كأنما تخطّفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق!

والنتيجة إذن هي هذه الدواوين والروايات البائرة في قمامات الأسواق!

ثم يتهمون بعد ذلك الذوق الشعبي، والقارئ العربي! ولست أدري متى يخرج جحا من الحمام ليدرك أن صوته ليس بأفضل من نعيق الغراب؟

ويلفتك من إبداع الشاعرة امتلاكها المتين لناصية القصيد العمودي، امتلاكا يندر مثله في زمن الأهواء والغوغاء!

قال العجَزة الكذبة : إن القصيدة العمودية قد استنفدت أغراضها! ها...! وركبت هذه اللعبة السخيفة بعض الملاحق الثقافية ببلادنا؛ فلا تنشر من الشعر إلا ما كان كافرا بمعمار الخليل!.. عجبا! فمن منهم قالها في الشاعر الراحل محمد مهدي الجواهري؟ ألم يجمع الكذبة إجماعا على أنه متنبي العصر؟.. وأن بموته مات آخر الشعراء العرب؟... ومن منهم يقولها الآن في الشاعر اليمني القدير عبد الله البردوني؟.. وخذوها أيها السادة عني شهادة قبل أوانها، أتحمل كامل أمانتها: إنه سيموت، وإنهم سيقولونها : اليوم مات سيد الشعراء! اليوم خرست صناعة العرب!

ألم يعد العمود الشعري تقليدا (ماضويا)؟ إذن فما بال هؤلاء؟ أم أن المضمون الأيديولوجي هو الذي يحدد جودة الإبداع؟.. فما هذه الزنابير التي ملأت أسماعنا بنبذ الأيديولوجا، وها هي لم تزل في أوحالها المسنونة غارقة؟

اليوم يُنشط في المغرب الزجل إنتاجا واهتماما -وإني من المحبين لرفيعه المغرمين بسماعه- وله في الملاحق الثقافية وغيرها مساحة محترمة. ولكن ما بال هؤلاء (الحداثويين) يبجلونه، ويجلونه؟ مع أنه شعر واضح العبارات، شعبي الكلمات، شفاف المعاني والأوزان! أم أن لعنة (التغميض)، و(الفوضى العابثة) قدر خاص بفصيح الشعر دون عاميه؟

يا سادتنا علمونا دلالات الكلمات فقد ضلت عنا!.. أم أن منطق الأشياء أصابه شيء؟

إن إنتاج القصيدة العمودية ليس (معرفة) بالعروض، أو إتقانا لزحافاته وعلله، ولا امتلاكا (صناعيا) للثقافية وأوزانها، وإنما هو امتلاك وجداني لإيقاعها أولا وأخيرا! وإلا فما بال القرون الأولى من الشعراء الجاهليين والإسلاميين قبل الخليل؟

ولقد قرأت عن شاعر النهضة محمود سامي البارودي أنه كان جاهلا بتفاصيل علمي العروض والقافية، مع أنه كان من أعظم فرسان الشعر العمودي في زمانه، وأرسخهم قدما في ميدانه! والأمر في غاية البساطة وهو راجع إلى قدرة الأذن على التقاط الأنغام، واستيعاب أمواجها، وهو أمر مجرب عندنا ممارس في الشعر العمودي والتفعيلي سواء! وذلك جوهر من جواهر الإبداع، وشرط صحة -كما يقول الفقهاء- في شاعرية الشاعر!

ومن ذا قدير على إنتاج قصيدة خارج نظرية الإيقاع قديمها، أو حديثها؟ بل إنني أزعم أن الشعر هو الإيقاع نفسه! فتأمل... ألا ترى أن الشاعر إنما يفيض وجدانه في (حال الجذب)، أو (مقام الحرية)، فلا هو يملك ذاته حينئذ إلا بعد أن يجدها قد استسلمت طوعا، أو كرها، لشعورها الراقص المتدفق بعاطفة ما؟ غضبا، أو عشقا، أو ولها، أو قلقا، أو حزنا، أو طربا...إلخ. هذا الجنون الراقص معنى (هيولي) لا يتخذ (صورته) إلا إذا صيغ في جسد راقص مجذوب! فإن تكسر على تخوم اللغة، اختنق الشعر في جوف الشاعر، ولم نظفر منه إلا بهذه الكلمات الصدئة المتكلسة التي تملأ كراسات (الحداثويين)!

هنا يندلق إشكال قصيدة النثر!

فبغض النظر عن إديولوجية (الحداثيين) المبنية على تدمير كل ما هو أصيل في الأمة العربية، وانتهازية (الحداثويين) المبنية على الجهل بمقومات الإيقاع العربي، والعجز عن امتلاك أذن موسيقية شاعرة؛ فإني أقول إن قصيدة النثر هي من أرقى ما يمكن أن يصل إليه الشاعر العربي من مراتب الإبداع، وصور الجمال!

لست متناقضا!

إن الأنماط الشعرية العمودية والتفعيلية -ولا أقول (القوالب)- ليست أنماطا توقيفية منزلة من السماء! ومن الجهل والتحجر المضادين لتدفق الحياة؛ اعتبارها هي نهاية التاريخ في مجال الإبداع الشعري! وإنما التحدي الذي يواجه اليوم قصيدة النثر -كما قلت في أكثر من مناسبة- هو الإيقاع!

إن خصوصية القصيدة المنثورة تتجلى في انبنائها على ما يمكن تسميته (بالإيقاع الذهني)، وليس هو بالضرورة ما يسمى (بالإيقاع الداخلي) أي ما يعرف من أشكال الجمالية الأسلوبية القديمة، كتكرار حروف بعينها، أو أصوات بعينها، في بنية التعبير الداخلية للإبداع، أو ما يعرف (بالقافية الداخلية)، أو المحسنات البلاغية العتيقة من جناس وطباق.. وهلم جرا! كلا، وإنما المقصود ههنا شيء آخر، هو أدق وأعلى من كل ذلك، إنه الموسيقى المنبجسة من الصور والدلالات، والأنغام المترددة عبر الإشارات والفضاءات! إنها (غنائية) نفسية، ليس بالمعنى الأدبي التصنيفي للكلمة، ولكن بالمعنى الإيقاعي الخاص! ذلك المعنى المشار إليه في قول النبي ﷺ -مما رواه ابن ماجة : «وتغنوا به فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا» وقد سمع مرة أبا موسى الأشعري يتغنى به ليلا، فلما أصبح قال له : «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود» فقال أبو موسى : «أما أني لو علمت مكانك لحبّرت لك القرآن تحبيرا!» أي لجودت الأداء الغنائي تجويدا! ولو ينتبه الغافلون : أليس ذلك من أعظم التحديات القرآنية، ومن أبرز أوجهه الإعجازية الجمالية؟ ألم تتساءل مرة كيف يكون هذا النص القرآني، قابلا للتغني المتدفق الرهيب، حتى يكون بذلك قادرا على خطف الألباب، وسحر الأذواق إلى درجة السكر، (والمحو)، كما يعبر الصوفية الأوائل؟ أين يكمن هذا الشجا المتدفق عبر كلماته مرتلة وغير مرتلة، حتى يبكي غير الناطقين بلغة الضاد، ولا المحيطين بألفاظها ودلالتها؟ وهو -مع ذلك- لم ينضبط إلى وزن معلوم، ولا قافية محددة، ولا إلى شكل عروضي، ولا إلى أي نمط نغمي معروف لحد الساعة!.. وكل المحاولات لإرجاعه إلى وزن عروضي إنما هو من قبيل العبث الذي لا يطَّرِد ولا يستقيم! ولقد رأيت أحد الشعراء المعاصرين، وقد سحره الإيقاع المتدفق في (سورة مريم)، فثمل بأنغامها حتّى كاد يجن، وقد كان يفغر فاه منخطفا -وهو ينصت- إلى جمال المدود و مواقعها الصوتية الرهيبة، وانفجار شلال الحركات المتواترة حينا، والمتنائية أحيانا أخرى! فراح يبحث جاهدا عن أي خيط يمكن أن يقبض به على سر السحر الموسيقي في التعبير القرآني! ولكن دون جدوى.. لم يزل لحد الساعة يركض عبثا!

هنا يكمن سر التحدي الذي تواجهه قصيدة النثر!

إنني لا أطلب من أصحابها شيئا غير إقناعنا إيقاعيا، وإشباع أذواقنا الجمالية، بما تبدعه من جديد على هذا المستوى! وإلا فكل شيء مما تزعمه لنفسها هذه القصيدة/الوهم -لحد الساعة- موجود عندنا في شعرنا العربي عموديه وتفعيليه!

ثم إنه من السخف الأيديولوجي، والتقليد الأعمى القول بـ(نسخ) مرحلي بين أنماط الإبداع الشعري! فحتى لو استقامت البنية الإيقاعية لقصيدة النثر -ودونه خرط القتاد- فإنه من الممكن؛ بل من الواجب تعايش الأنماط جميعها، ولو عملت الأمة العربية بمنطق القطيعة لما كان منا من يقرأ شعر امرئ القيس اليوم، ولا النابغة الذبياني أو الحارث بن ظالم! ولا الذين جاؤوا بعدهم من الإسلاميين والعباسيين! ولما كان أحد اليوم يفيد من تجاربهم، وذلك هو المبتغى الأيديولوجي للحداثة والحداثيين! بل لكانت اللغة العربية اليوم لغات! وكفى بذلك هزيمة للأمة العربية وقوميتها اللغوية! وإني أحمد الله أني أجد لي امتدادا في الزمان والمكان أفقيا وعموديا، أقرأ شعر ديك الجن، وقطري بن الفجاءة، وعروة بن أذينة، ومن قبلهم ومن بعدهم حتى الأمير أحمد شوقي، ثم بدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور، ونزار قباني، ثم أحمد ا لمجاطي وعبد الكريم الطبال، حتى أمينة المريني؛ فأجد النهر واحدا إلا أنه لا يمكنك أن تسبح فيه مرتين!

فعن أي إبداع يتحدث هؤلاء الجهلة؟

وبفضل ذلك التواصل الأفقي والعمودي، أتنقل اليوم بين الفضائيات التلفزيونية العربية، واحدة واحدة، فلا أجد صعوبة في فهم خطاباتها العامية المختلفة، إذ لا خلاف بينهم جميعا إلا في الأداء الصوتي حينا، والاستعمال الترادفي حينا آخر، فلا يحتاج المستمع المغربي لإدراك الأداء اليمني للغة العربية، أو السوداني، أو الخليجي إلا لساعات قلائل؛ وينخرط في الفهم، وإن لم ينخرط في الاستعمال! ثم يزعم بعد ذلك بعض اللسانيين المحدثين أنها لغات وليست لغة

تتمة : ص 48